جوانب من حياة قاضي المرابطين الإمام الحضرمي

التالي ولد الحسين
جامعة نواكشوط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

هو أبوبكر محمد بن الحسن الحضرمي المعروف بالمرادي[1] ، لايعرف الكثير عن المراحل الأولى من حياته، خاصة مايتعلق بنشأته، مما جعل بعض الباحثين يكلفون أنفسهم عناء البحث في ذلك الموضوع، مثل ماذهب إليه رضوان السيد من أنه نشأ في المشرق أورحل إليه ودرس فيه، وذلك بالاعتماد على جملة من الاعتبارات يراها ذلك الباحث كافية لتبرير فرضيته، من أهمها نسبة المرادي إلى قبيلة مراد العربية من ناحية وإلى حضرموت من ناحية أخرى، ومن المعروف أن قبيلة مراد ظلت تتخذ منذ عصور قبل ظهور الاسلام من حضرموت موطنا لها، كما أن تخصص المرادي في بعض المعارف وانفراده بالإهتمام بها في المغرب، خاصة علم الاعتقاد الذى لم يكن وقتئذ شائعا هنالك على العكس من المشرق، فضلاعن ارتباط إجازته بسلسلة من الأشياخ المشارقة، خاصة في إجازته المتعلقة بكتاب فقه اللغة للثعالبي[2].

لكن، إذا عدنا مباشرة إلى المصادر العربية التي تحدثت عن المرادي، فإنه يمكننا الاعتقاد بأنه مغربي، وأن نسبته إلى مراد وحضرموت، لاتنفي عنه مغربيته لأن الكثير من الأسر العربية استقرت في المغرب منذ بواكير الفتوحات، وظلت الهجرات تتوالى في شكل جماعات أو أفراد، وغالبا ما كان الأفراد وعائلاتهم يحتفظون بالالقاب والكني التي كانوا يتمتعون بها قبل هجرتهم إلى المغرب، ومن بينها نسبتهم إلى قبائلهم ومناطقهم الأصلية، بل إن ذويهم يرثون عنهم تلك النسبة على الرغم من أنهم ولدوا ونشأوا في المغرب، مثل وضعية صاحبنا المرادي الحضرمي، بل يكفي من أجل اثبات مغربيته أن جل المصادر التي تحدثت عنه نسبته أيضا إلى القيروان[3] ، كما أن اهتمامه بعلم الكلام، ووجود علماء مشارقة في سلسلة مشائخه خاصة في رواية كتاب فقه اللغة للثعالبي أمور كلها لا تكفي لتبرير نشأته بالمشرق ولا حتى رحلته إليه، فمن المعروف أن القيروان التي نسبت المصادر المرادي إليها كانت على ارتباط وثيق بالمشرق وأن الكثيرين من شيوخها قد رحلوا إلى المشرق للحج والدراسة، من بينهم على سبيل المثال أبو عمران الفاسي الذي يعتقد بأن صاحبنا عاصره على أقل تقدير خلال السنوات الأخيرة من

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

حياته، ومن المعروف أن أبا عمران تتلمذ على الباقلاني الذي كانت اهتماماته منصبة على علم الكلام، خاصة العقيدة الأشعرية، وعلوم أصول الدين، وهي الاهتمامات ذاتها التي كانت لدى المرادي[4].

أما الشخصيات العلمية المشرقية التي ورد ذكرها في إجازته فإنه لم يأخذ عنها مباشرة، وإنما بواسطة شيخ مغربي قيرواني هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عمر بن محمد التميمي القصديري[5]، وانطلاقا من ذلك، فإن المرادي- في نظرنا- يعتبر مغربيا قيروانيا، وأنه كغيره من علماء إفريقية قرر الهجرة إلى الأندلس والمغرب الأقصى عند ما اختلت الأوضاع الأمنية في إفريقية ولم تعد الحياة فيها مأمونة خاصة بعد سنة 449هـ/1058م، عند ما خرج الأمير المغربي باديس من القيروان بعد هجوم أعراب هلال وسليم على البلاد فدخلوا القيروان وخربوها[6].

ويبدو أن المرادي توجه مباشرة من القيروان إلى الأندلس حيث كان ينوي الاستقرار هنالك عند ما يحصل على الحظوة التي يراها مناسبة لطموحاته- التي يبدو أنها لم تكن محدودة-، فتردد على ملوك الطوائف الذين لم يطمئنوا إليه وسايرتهم الشكوك حول أغراضه ومراميه، يقول ابن بسام اثناء حديثه عنه: "... وتقلب أبو بكر بين السهول والحزون تقلب الميل بين أطباق الجفون، وقلت دولة من دول ملوك الطوائف بالأندلس إلا وقد ابتغى إليها وسيلة وأعمل في الهجوم عليها حالا وحيلة، فتنزوي عن مكانه انزواء الخائف من الرصد وتغض بإحسانه غصص العين بالرمد..."[7]، واستعان المرادي بفقهاء الأندلس من ذوي المكانة العليا لدى الملوك من أجل تحقيق مبتغاه، فتقرب منهم من أمثال أبي مروان بن سراج[8]، وأبي عبد الرحمن بن ظاهر[9]، وغيرهما، كما احتفظت لنا المصادر ببعض أشعاره التي مدح بها بعض ملوك الطوائف متقربا إليهم بكتبتهم من كبار الفقهاء، مثل القصيدة التي مدح فيها ابن صمادح متوسلا إليه بأن يتعرف عليه من خلال قاضيه أبي الوليد هشام بن أحمد بن هشام الهلالي[10].

وقد انتهى بالمرادي تنقله بين الأمراء بالتحاقه بالمرابطين في بداية دولتهم عند ما انخرط في خدمة أبي بكر بن عمر اللمتوني في اغمات وتوجه معه إلى الصحراء، ونصبه قاضيا بأزوكي عاصمة المرابطين هنالك[11].

وعلى الرغم من أن المرادي تولى منصب القضاء ذو الطابع الديني، فإن اهتماماته السياسية ظلت طاغية على حياته العملية وانتاجه العلمي، ومن الأمثلة على ذلك أنه لم يكتف بتعليم الناس أمور دينهم، وإنما تجاوز ذلك إلى محاولة تعليم أمراء مرابطي الصحراء "رسوم الملك" والآداب المرتبطة به، فألف لهم في ذلك المجال كتابه المشهور والمتداول حتى أيامنا هذه، وهو كتاب "الإشارة إلى أدب الإمارة"[12].

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

كما يبدو من خلال قطعة من رسالة كتبها أنه كان بالإضافة إلى وظيفته كقاض رسمي لدى السلطة المرابطية الصحراوية، فإنه كان يتولى أيضا مهام الكاتب، حيث أجاب نيابة عن أحد الأمراء المرابطين في الصحراء على أحد ولاتهم فكتب له: "... وقفنا على كتابك الذي طال فقصر، وكبر جرمه فصغر، صدرته بفنون التعظيم، وسطرته بمجدك الحديث والقديم، وخاطبتنا فيه بالألفاظ الحجابية التي تخاطب بها غوغاء الرعية، ارجع أصلحك الله عن هذا الأدب وتأدب في خطابك لذوي الرتب، فقد أطعنا فيك سلطان الحكم لانتسابك إلى اسم العلم..."[13].

وكان المرادي من فحول علماء الإسلام من ذوي المعارف الواسعة، إلا أنه اشتهر بعلو كعبه في معرفة علوم أصول الدين وعلم الكلام وفقه اللغة[14].

وبالإضافة إلى ذلك فإنه كان شاعرا مجيدا وأديبا كبيرا، وفي هذا الإطار يقول عنه ابن بسام: "... وكان أبوبكر هذا فقيها فطنا وشاعرا لسنا، ممن جمع براعة الفقهاء وبراعة الشعراء النبهاء، وتصرف تصرف المطبوعين وتكلم بالسنة المجيدين، أشعار كصفحات البدور ودواوين كالنتاج البحور..."[15]، وقال عنه ابن بشكوال مانصه: "... كان رجلا نبيها عالما بالفقه وإماما في أصول الدين، وله في ذلك تواليف حسان مفيدة، وكان مع ذلك ذاحظ وافر من البلاغة والفصاحة... له نهوض في علم الاعتقادات والأصول ومشاركة في الأدب وقرض الشعر..."[16].

ويعتبر المرادي رائدا في مجال علم الكلام بالمغرب الأقصى، إذ قال عنه التادلي: "... وكان المرادي أول من ادخل علوم الاعتقادات بالمغرب الأقصى..."[17].

وبصفة عامة فإن المرادي كان عالما جليلا موسوعيا، ينطبق عليه ما وصف به من طرف بعض الكتاب الذين اعطوه لقب "الإمام أبوبكر المرادي"[18].

وإذا كانت المصادر لم تحتفظ لنا بأسماء من أخذوا عن الإمام الحضرمي العلم من سكان الصحراء، والذين يفترض بأن طلبته منهم كانوا كثيرين نسبيا، فإنها تفيد بأنه سافر إلى الأندلس بعد أن قضى مايزيد على ثلاثين سنة بالصحراء قاضيا في آزوكي، وأخذ عنه في رحلته هذه الكثيرون من قضاة الأندلس ومشاهير علمائها، ومن بين أشهر من أخذوا عنه منهم، القاضي أبو محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللخمي، الذي درس على المرادي أصول الدين، وكذلك أبو الحسن على بن احمد بن خلف الانصاري المقرئ وأبو الوليد بن هشام بن احمد بن هشام الهلالي[19]، واخذ عنه أبو العباس الكتاني كتاب فقه اللغة للثعالبي، وغير أولئك من علماء الأندلس[20].

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ويبقى أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الطبيب الصقلي الشهير تلامذة المرادي وأكثرهم ارتباطا به، من خلال ما احتفظت لنا به المصادر، وحظه أهل

وكان أبو الحجاج يتردد على المرادي في الزوكي بالصحراء[22]، وبعد وفاة شيخه استقر بمراكش بعد أن أجازه في معظم مؤلفاته التي ذكر لنا منها عياض الأرجوزة الصغرى، والكبرى، وكتاب التجريد، وهي كتب في علم الاعتقاد[23]، وكتب أخرى عديدة، لكن يبدو أن مؤلفات المرادي- حسب ماهو معلوم حتى الآن- لم يعد متداولا منها في وقتنا الراهن، سوى مختصره في السياسة المعروف تحت عنوان: "الإشارة إلى أدب الإمارة"، وكتاب آخر له في علم أصول الدين وهو محفوظ بمكتبة القرويين بفاس تحت عنوان "اختصار تنبيه الأنام"[24]، كما توجد نسخ منه في المكتبات الشخصية الكبرى في موريتانيا[25].

واحتفظت لنا المصادر بقطع شعرية مختلفة الأغراض للمرادي، منها ما كانت له أهداف تعليمية، كالقطعة الشعرية التي رواها القاضي أبو الفضل عياض عن أبي الحجاج يوسف الكلبي، حيث يقول عياض متحدثا عن هذا الأخير "... الشدني رحمه الله، قال انشدني أبو بكر المرادي لنفسه في الحجة على إثبات القدر[26]:

علمي بقبح المعاصي حين ارتكبها ... يقضي بأني محمول على القدر
كلفت فعلا ولم أقدر عليه ولم ... أكن لأفعل أفعالا بلا قدر
وكان في عدل ربي أن يعذبني ... فلم أشاركه في الملك والأمر
إن شاء نعمني أو شاء عذبني ... أو شاء صورني في أقبح الصور
يارب عفوك عن ذنب قضيت به ... عدلا على فهب لي صفح مقتدر

وكان المرادي معتزا بنفسه، معتدا بها، فخورا بسعة معارفه ومآثره، قاسيا تجاه مخالفي رأيه، من ذلك مثلا أنه كان خلال إقامته باغمات في خلاف مع الشيخ أبي محمد عبد العزيز التونسي في مسائل علمية، وعند ما أراد المرادي الانصراف عن أغمات- ربما إلى الصحراء مع أبي بكر بن عمر- كتب لخصمه يقول[27]:

قل لعبد العزيز يكثر من بعد ... ي ما شاء منه قيلا وقالا
وتشجع ما غبت عنك فإنا ... قد ضربنا لك الأمثالا
وإذا خلا الجبان بأرض ... طلب الطعن وحده والنزالا

ومن ذلك أيضا مارد به على الوليد بن الوارث الذي كان مؤدبا بالمرية بالأندلس عند ما بلغه أنه يقول بقدم الحروف، حيث أرسل له رسالة تتضمن[28]:

لادر در سخافة ... شنعاء جاء بها الوليد
كفر تكاد له الجبا ... ل على ثقالتها تميد

قال الرئيس الأحوص ... ي ورأيه أبدا سديد
حمق المؤدب فادعى ... من بينهم مالا يجيد
مكنتموه من الكلا ... م وجهله أبدا يزيد
وتركتموه مسرحا ... أين السلاسل والقيود؟
أغلا الحديد بأرضكم ... أم ليس يمكنه الحديد؟

كما مدح المرادي بعض ملوك الطوائف بالأندلس[29].

ومن جملة الأشعار التي تدل على اعتزازه بنفسه الأبيات التي وجهها إلى ابن طاهر الكاتب، وذلك عند ما كان مقيما بمرسية، فبلغه بأن أحد شعرائها هجاه، فأوفد إليه المرادي شخصا كان في خدمته يدعى ابن المقدم فصفعه، فشكاه الشاعر إلى ابن طاهر، فكتب المرادي إلى هذا الأخير يقول[30] :

تعرضني كلب بهجو مخذل ... كقئ السكاري أو هراء المبرسم
فثقفت من وفي إليه سحائبا ... من الصفع يحدو وفدها ابن المقدم
فحامت عليه كالجراد تساقطت ... من الجو في انوار روض معمم
وغنى دوي النعل في صحن رأسه ... ألا عم صباحا أيها الربع واسلم

ومن ذلك أيضا أنه كان يرافق أحد أمراء المرابطين في سجلماسة، وكان معهما كاتب ذلك الأمير، وكنية ذلك الكاتب "أبو الأصبغ"، فسقط هذا الأخير من فوق دابته وشج رأسه، ثم حدث أن سقط المرادي من أعلى دابته، "... فقال أبو الاصبغ هذا الفقيه أيضا قد سقط فقال المرادي من جملة أبيات[31] :

فشتان بين وقوعي أنا ... وبين وقوع أبي الأصبغ
فذاك سقوط يشج الوجوه ... وهذا سقوط كما ينبغي

ولاشك أن هذه النماذج الشعرية، لاتدل على المكانة العلمية الكبيرة للمرادي، لا كفقيه وأصولي متكلم وسياسي طموح فحسب، وإنما كشاعر وأديب كبير أيضا. وليست لدينا معلومات حول الاسباب التي دعت المرادي إلى السفر إلى الأندلس سنة 487هـ/ 1094م، أي سنتين فقط قبل وفاته في آزوكي[32] .

ويبدو أن المرادي كان بالإضافة إلى المهام التي كلف بها من طرف أمراء المرابطين في الصحراء كمستشار سياسي وقاض رئيسي لدولتهم، حريصا على نشر المعارف الإسلامية بين سكان تلك المنطقة الصحراوية، فابتكر لهم وسائل تناسب وضعهم البدوي الذي لايساعد على انتشار الكتب بينهم واقتنائها من طرفهم، واختار لهم منهجا للتعليم يناسب أيضا واقع معظمهم ممن لم تكن لديهم القدرة على القراءة، أو التفرغ للدراسة نتيجة لمشاغل الحياة اليومية في منطقة صحراوية قاحلة تتطلب الكثير من الجد والعمل من أجل أن يحصل الشخص على الحد الأدنى من متطلبات

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

حياته، فنظم أراجيز ومختصرات في مختلف فروع الدين من أجل تسهيل حفظها وتداولها بين السكان[33].

ومنذ وصول المرادي إلى آزوكي صحبة أبي بكر بن عمر اللمتوني إثر عودته إلى الصحراء قادما من المغرب[34]، فإنه ظل يشغل منصب القاضي في عاصمة الدولة المرابطية الصحراوية، التي كان يطمح إلى أن يحتل بها مكانة عبد الله بن ياسين، وكان آخر أمراء المرابطين الذين شغل المرادي في عهدهم ذلك المنصب هو محمد بن يحيى بن عمر، الذي توفى المرادي في أيام حكمه سنة 489هـ/ 1096م.

وقد خلف المرادي أولادا ذكرت المصادر من بينهم ابنه أبا الحسن على المعروف بابن المرادي الذي يبدو أنه ارتحل من الصحراء بعد وفاة والده، وسكن غرناطة، وكان من كبار العلماء بها، وله روايات عن والده أبي بكر المرادي أخذها عنه علماء أندلسيون من بينهم أبو خالد بن رفاعة، وأبو القاسم بن سمحون وغيرهما[35]، كما ترجم ابن فرحون لحفيده أحمد بن حسين ابن عمر الحضرمي المرادي المولود بغرناطة سنة 575هـ، والذي يبدو أن اهتماماته كانت متطابقة -إلى حد ما- مع اهتمامات جده أبي بكر، حيث كان أحمد "... فقيها حافظا ذاكرا للنوازل بصيرا بالفتوى متقدما في علم الكلام وأصول الفقه سنيا فاضلا متين الدين"[36].

وعلى الرغم من أهمية الدور الذي لعبه عبد الله بن ياسين في نشر الإسلام وقيام دولة المرابطين، فإن الذاكرة الجماعية لسكان الصحراء احتفظت للمرادي بدور أكبر ونفوذ أوسع في مجتمع المنطقة خلال ذلك العصر، ولاشك أن بقاء المرادي والأساطير المرتبطة به في ذاكرة المجتمع الصحراوي عبر الأجيال والقرون، أمر يدل على عمق الدور الذي لعبه في تغيير عقليات ومعارف أهل تلك المنطقة، فضلا عن أنه توفي هنالك، كما أن بعض العائلات في موريتانيا الحالية - التي يوجد بها ضريحه- تربط نفسها بواسطة شجرات نسب بالمرادي[37].

ومع أن المرادي كان من بين أشهر العلماء الذين رافقوا أبابكر بن عمر من أغمات إلى الصحراء من أجل نشر العلوم الشرعية فيها، فإنه لم يقم بتلك المهمة وحده، وإنما شاركه في القيام بها علماء آخرون كانوا يرافقون جيوش الفتح المرابطية فيتولون تعريف سكان المناطق التي يخضعها الفاتحون بقوة السلاح بأمور دينهم، كما كان أولئك العلماء يساعدون السكان الذين أسلموا قبل ذلك، والذين كانت معارفهم الإسلامية محدودة في تعميقها[38].

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الهوامش

(1) أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال: كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة 1955، ص:572.

(2) رضوان السيد: مقدمة كتاب الإشارة إلى أدب الإمارة، لأبي بكر محمد بن الحسن المرادي المذحجي الزبيدي: ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 198، ص:10-12.

(3) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ط1، تحقيق د. احسان عباس، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1979، ص:364.

(4) أبو الفضل القاضي عياض بن موسى: الغنية (الفهرست شيوخ القاضي عياض) دراسة وتحقيق د. محمد بن عبد الكريم - الدار العربية للكتاب- ليبيا، تونس 1978، ص:282.

(5) ابن بشكوال: مصدر سبق ذكره، ص: 572. والغنية: مصدر سبق ذكره، ص:283.

(6) رضوان السيد: مقدمة كتاب الإشارة للمرادي: سبق ذكره، ص:13.

(7) ابن بسام: مصدر سبق ذكره، ص: 364.

(8) ابن بشكوال: مصدر سبق ذكره، ص:572.

(9) ابن بسام: مصدر سبق ذكره، ص:365.

(10) أبو الفضل القاضي عياض بن موسى: الغنية (الفهرست شيوخ القاضي عياض)، دراسة وتحقيق، د. محمد عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1978، ص:94.

(11) العباس بن ابراهيم: الإعلام بمن حل مراكش واغمات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب بن منصور -المطبعة الملكية- الرباط 1976، ج4، ص:12.

(12) رضوان السيد: مرجع سبق ذكره، ص:15.

(13) ابن بسام مصدر سبق ذكره، ص:365.

(14) الغنية: مصدر سبق ذكره، ص:282.

(15) ابن بسام: مصدر سبق ذكره، ص:364.

(16) ابن بشكوال: مصدر سبق ذكره، ص:572.

(17) أبو يعقوب يوسف بن يحيى بن الزيات التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، وأخبار أبي يعقوب المريني، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، الرباط 1984، ص:106.

(18) برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص:45. وابن بشكوال: مصدر سبق ذكره، ص:572.

(19) الغنية: مصدر سبق ذكره، الصحفات: 94، 216، 238.

(20) ابن بشكوال مصدر سبق ذكره، ص:572.

(21) الغنية: مصدر سبق ذكره، ص: 283.

(22) رضوان السيد: مرجع سبق ذكره، ص:15.

(23) الغنية: مصدر سبق ذكره، ص:15.

(24) رضوان السيد: مرجع سبق ذكره، ص:15.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

(25) الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)، مطبعة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس 1987.

(26) الغنية: مصدر سبق ذكره، ص:283.

(27) ابن بسام: مصدر سبق ذكره، ص:367.

(28) ابن بسام: مصدر سبق ذكره، ص:366.

(29) الغنية: مصدر سبق ذكره، ص:366.

(30) ابن بسام: مصدر سبق ذكره، ص:366.

(31) نفس المصدر، ص:367.

(32) الصلة: مصدر سبق ذكره، ص:572.

(33) رضوان السيد: مرجع سبق ذكره، ص:15.

(34) التادلي: مصدر سبق ذكره، ص:106.

(35) العباس بن إبراهيم: مصدر سبق ذكره، ج4، ص:12و 13.

(36) ابن فرحون: مصدر سبق ذكره، ص:45.

(37) انظر: Abdelwedoud OULD CHEIKH et Bernard SAISON: « Le théologien et le sommanbule : un épisode recent de l'histoire almoravide en Mauritanie »Canadian jurnal of Africa studies., vol, 19, 1985 pp 301-317

(38) رضوان السيد: مرجع سبق ذكره، ص:14.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner